بها امير مصره وقد شرحها صلاح الدين الصفدي (وطبع هذان الشرحان في الديار الاوربية) ومتى ساعدنا الوقت نشرناهما لكثرة ما فيهما من التنميح للامور التاريخية التي يجدر بكل اديب الوقوف عليها وقد احببنا ان ننشر له بعض الرسائل التي ذكرها صاحب الذخيرة تقرأوها في باب الصحف المنسية .

ثروة العرب

قد يظن من يطالع تاريخ الاسلام بدون ان يعمل نظره معملة ان ما يراه في تضاعيف سطوره من اخبار الثروة وطول ارقامها ولغاني الباحثين عنها والمتفانين في نيلها ضرباً من ضروب الغلو ساق اليه تسرع المؤلف او اختلاق منه ليجعل لمن يتكلم عنه وقعاً في النفوس ويجب اليها مطالعة كتابه خصوصاً والبشر في كل دور من ادوارهم كادوا يجعلون الدينار معبودهم .

لولم يرد احصاء الثروة الاسلامية في كتب الثقات ما كان كلام بعضهم عنها بحيث يصح نقله . فقد لقي الرسول عليه الصلاة والسلام ربه وحاله من الزهد في المال والرفاهية حاله واستن معظم اصحابه بسنته وكان من امر ابي بكر وعمر وعلي من الزهد في المال ماشاع ذكره وظهر اثره وتحدث به السمار في الامصار . قال (١) معاوية وقد ذكر المال « اما ابو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده واما عمر فارادته الدنيا ولم يردها واما عثمان فاصاب منها واما نحن فتمرغنا فيها ظهراً لبطن » .

على هذا النحو كان التأثل والارتياش راح الخليفة الاول واسباب الفتوح معدودة ولم يصل قواده الى اقصى جزيرة العرب ليفتحوا بلاداً عامرة كفارس ومصر والشام كانت خزانة الثروة والاموال بما كان فيها من حضارة قديمة وانما تهيأت الفتوحات وكثرت الغنائم ايام الخليفة الثاني ففتح الله للمسلمين تلك البلاد الغنية فعف عنها هو ومعظم اصحابه وكان يصادر من عماله من يجمع مالاً من غير حله . اما الخليفة الثالث فاخذ نصيباً من الدنيا هو وعماله وربما اغرق دؤلاء في نيلها بطرق لم تعهد زمن الخليفتين السالفين لان معظمهم من انسبائه

(١) اعتمدت في هذه الرسالة على مختصر تاريخ الاسلام للحافظ الذهبي وهو مخطوط كبير الحجم غزير الفائدة وقد جعلت عبارته وسط علامتين اما سائر هذه الاخبار فمرجعه كتب التاريخ .

وخاصته لا يحاسبون فيما هم فاعلون حتى اذا جاء الخليفة الرابع اراد ارجاع الخلافة الى طورها اللائق وقتر على نفسه وعلى خاصته وذويه ولم يتسع له الوقت حتى تظهر فيها اخلاقه بالقول والفعل لاشتغاله بدفع غوائل الفتن .

جاء معاوية فانقلبت الخلافة الى ملك عضوض وبدأ يستكثر من المال فيعطيه الاديب والطبيب والخطيب والفقيه والكاتب والقائد والعامل ومن ماثلهم يجعلهم عدته في توطيد الملك له ولذريته فكثرت الاموال وانتأ المسلمون يقلدون الروم والفرس في السعي وراء المكاسب واختزان الاموال والناس على دين ملوكهم . ولم يكن الاَّ قليل حتى ابدى عبدة الدرهم نواجذهم من غير نكير وكاد ينسى ما كان عليه اهل الصدر الاول الا قليلاً ففي حوادث سنة اثنتين وثلاثين « ان الدنيا اتسعت على الصحابة حتى كان الفرس يشترى بمائة الف وحتى كان البستان يباع بالمدينة باربعمائة الف وكانت المدينة عامرة كثيرة الخيرات والاموال والناس يجبى اليها خراج الممالك وهى دار الامارة وقبة الاسلام فبطر الناس بكثرة الاموال والخيل والنعم وفتحوا اقاليم الدنيا واطمأنوا وتفرغوا »

«وكان عبدالرحمن بن عوف الزهري احد الثمانية الذين سبقوا الخلق الى الاسلام تاجراً كثير الاموال بعد ان كان فقيراً باع مرة ارضاً له باربعين الف دينار فتصدق بها كلها وتصدق مرة بسبعمائة جمل باحمالها قدمت من الشام واعان في سبيل بخمسمائة فرس عربية» «ومات ابو طلحة الانصاري احد من شهد بدراً في سنة اربع وثلاثين وكان اكثر الانصار مالاً » . « وكان الزبير بن العوام ابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم واحد العشرة كثير المتاجر والاموال قيل كان له الف مملوك يؤدون اليه الخراج فربما تصدق بذلك في مجلسه وقد خلف املاكاً أُبيعت بنحو اربعين الف الف درهم وهذا لم يسمع بمثله قط » . «وكان طلحة بن عبيد التيمي احد العشرة من الاجواد يقال له طلحة الفياض وطلحة الجود ويقال انه فرق في يوم واحد سبعمائة الف ويروى ان اعرابياً من اقاربه قصده وتوسل اليه فوصله بثلثمائة الف درهم ويروى عن عمرو بن دينار عن مولى طلحة أن دخل طلحة كان كل يوم الف درهم ويقال انه خلف من المال التي الف درهم ومائتي الف دينار وقال ابن الجوزي : خلف طلحة ثلاثمائة حمل ذهباً وروى ابن سعد باسناده له قوّمت اصول طلحة وعقاره بثلاثين الف الف درهم»

وخلف عمرو بن العاص نائب معاوية على مصر « اموالاً ضخمة من ذلك سبعون رقبة بعير محملة ذهباً وكان معاوية قد اطلق له خراج الديار المصرية ست سنين شارطه على ذلك لما اعانه على وقعة صفين» . جمع ابن العاص ما جمع لا من الخراج الذي كان يستأثر به وحده وانما من تلونه في اساليب استخراج المال من اهل مصر ولذا صادره عمر بن الخطاب

لما كان عاملاً له عليها. روى الديري في كتاب الحبس على التهمة عن ابي القاسم بن سلام في كتاب الاموال في اسناد له عن هشام بن ابي رقية وكان من افتتح مصر قال افتتحها عمرو ابن العاص فقال: من كان عنده مال فليأتنا به قال: فأتي بمال كثير قال: وبعد ذلك بعث الى عظيم اهل الصعيد فقال: المال فقال: ما عندي مال فسجنه قال: وكان عمرو يسأل من يدخل عليه هل تسمعونه يذكر احداً قالوا: نعم يذكر راهباً بالطور فبعث به مع رسول من قبله الى الراهب فأتي بقلة من نحاس مختومة برصاص فاذا فيها كتاب واذا فيه يابني ان اردتم مالكم فاحفروا تحت الفسقية فبعث عمرو الامناء الى الفسقية فحفروا فيها فاستخرجوا منها خمسين اردباً دنانير قال فضرب عنق القبطي وصلبه.

ومصر هي ام المدن الاسلامية بثروتها وتربتها ذهب كما وصفها احد حكامها ولم يزل امراؤها يستخرجون اموالها ففي سنة خمس وثمانين «مات متولي مصر والمغرب عبد العزيز بن مروان الاموي اخو الخليفة وقد ولي الديار المصرية عشرين سنة وخلف اموالاً لا تحصى» وسنة ٥١٥ مات بمصر الافضل امير الجيوش شاهنشاه احمد بن امير الجيوش بدر الارمني وكانت ولايته ثمانياً وعشرين سنة على الديار المصرية «واستولى الآمر على حواصله كلها ولم يسمع في الدنيا بمثلها كثرة كانت دوابه باثني عشر الف الف دينار وكان لبن المواشي التي له يغل في العام ثلاثين الف دينار واما ابن خلكان فنقل عن صاحب الدول المنقطعة قال: خلف الافضل وزير الديار المصرية وامير جيوشها ستمائة الف الف دينار ومائتين وخمسين اردب دراهم وخمسة وسبعين الف ثوب ديباج.»

وكانت أسباب الثروة في البلاد الشرقية كثيرة وخصوصاً لمن وَلي شيئاً من امر الامة في دور الانحطاط وارتفاع المراقبة وفساد التربية فان المصادرات والرشوات وانواع الهدايا والقربات وقلة النفقات ورخص البياعات كانت كلها من الاسباب التي تهيء للامير متى رفع خوف الله من قلبه ان يكون صاحب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة يسلبها ألوفاً من الضعفاء لينعم بها باله وبال عياله واولاده من بعده. والا فكيف كان يتأتى للامراء ان يخلفوا الاموال الطائلة في خزائنهم ويسرفوا اسرافاً لا يكاد يصدق لولا صحة ما رواه المحققون من اهل النظر.

قيل ان جملة ما انفقه عبدالله محمد بن ابي يوسف احد ملوك الاندلس في سفرة له مائة وعشرون حملاً ذهباً فكم كان في خزائنه يا ترى؟ ولا يخفى على ذي بصر ان احوال العرب الاجتماعية لم تكن في الدرجة التي نتصوّرها ولو حفظت لنا كتبهم وسجلاتهم من الضياع لكنا حكمنا على مدنيتهم من هذا القبيل صحيحاً لا شرب فيه ولا تخليط ولا

شك انه كان للقوم عناية بالمال وطرق استثماره واخبار اصحابه عنايتهم بالشؤون التي قلما يخطر بالبال ان كتاب العرب دونوافيها وصنفوا . وما تعب يعانيه من يود الخوض في ذكر احوال العرب على جليتها الا ناتج من قلة الظفر بكل ما كتبوه وقد صام القوم عن العلوم الاجتماعية قرابة خمسمائة سنه لم يكن لهم فيها بعد ابن خلدون فيما احسب كتاب ولا رسالة يصح الرجوع اليها في المعضلات .

***

رغب كثير من اهل الاسلام في الدنيا على اصولها ونشدوها من ابوابها وادخروا الاصفر والابيض بعرق الجبين والكدح المشروع والطرق المعقولة والارتياض والاستفاض والصناعات والتجارات والزراعات . وان قلّ من جمعوا المال من حله وانفقوه كذلك قلتهم في كل امة بحيث يتأتى للباحث في تراجم كبار الاغنياء في العالم ان يُرجع طبقاتهم الى ثلاث اما سارق بطرق تجارية او صناعية كما في الغرب اليوم او سارق برشوة ومظلمة كما في الشرق قديمًا وحديثًا او وارث ترك له اهله مالاً جنوه بتلك الاسباب وقليل منهم بالعمل واتخاذ اسباب الرزق . ولا يعقل ان يكسب المرء من حلال صرف ويسير على قانون مشروع او معقول ويتسنى له ان يكون من رجال الخزائن والصناديق .

كان امام اهل مصر الليث بن سعد الفهمي المتوفى سنة ١٧٥ « من بحور العلم له حشمة وافرة وكان نظير مالك قيل كان دخل الليث في السنة ثمانين الف دينار وما وجبت عليه زكاة مال قط وكان نواب مصر من تحت اوامره » وسنة ٣٠٢ صادر المقتدر بالله العباسي حسين ابن الجصاص الجوهري وسجنه قال ابن الجوزي : واخذوا منه ما قيمته ستة عشر الف الف دينار قال بعضهم : رأيت ابن الجصاص يُقبل بين يديه بالقبان سبائك الذهب قال الكتبي في ذيل الوفيات : كان ابن الجصاص من اعيان التجار ذوي الثروة الواسعة وللمابو يع لعبدالله ابن المعتز وانحل امره وتفرق جمعه وطلبه المقتدر اختفى عند ابن الجصاص هذا فوشى به خادم صغير لابن الجصاص فصادره المقتدر على ستة آلاف الف دينار قال ابن الجوزي : اخذوا منه ما مقداره ستة عشر الف الف دينار عينًا وورقًا وقماشًا وخيلاً وبقي له بعد المصادرة شيء كثير الى الغاية من دور وقماش واموال وبضائع وضياع .

قال ابن الجصاص في سبب ثروته : انه كان في دهليز ابي الجيش خمارويه بن احمد ابن طولون وكان وكيله في ابتياع الجوهر وغيره مما يحتاجون اليه وما كان يفارق الدهليز لاختصاصه به فخرجت اليه قهرمانة لهم في بعض الايام ومعها عقد جوهر فيه مائة حبة لم ير قبله ولا بعده اخر ولا احسن منه كل حبة منه تساوي مئة الف دينار عنده وقالت : يحتاج

ان يخرط هذه حتى تصفر فتجص في آذان اللعب وفي قلائده قال : فكدت اطير واخذتها وقد قلت اسمع والطاسة وخرجت في الحال مسروراً وجمعت التجار ولم ازل اشتري كل ما قدرت عليه الى ان جمعت مائة حبة اشكالاً في النوع الذي طلبته واردته وجئت عشياً وقلت ان خرط هذا يحتاج الى انتظار و زمان وقد خرطت اليوم ما قدرنا عليه وهو هذا ودفعت اليها المجتمع وقلت الباقي يخرط في ايام فقنعت بذلك واعجبها الحب فخرجت وما زلت اياماً في طلب الباقي حتى اجتمع فحملته اليها وقامت عليّ المائة حبة بدون المائة الف درهم واخذت منهم جوهراً بمائتي الف الف دينار ثم لزمت دهليزهم واخذت لي غرفة كانت فيه فجعلتها مسكني وكان يلحقني من هذا اكثر مما يحصى حتى كثرت النعمة وانتهيت الى ما استفاض خبره .

هكذا اغتنى ابن الجصاص المتوفى بعد العشرين والثلثمائة تقريباً وله اخبار ونوادر لا تصدر الا عن النوكى كان يتظاهر بها ليرى الوزراء منه هذا التغفل فيأمنوه على انفسهم اذا خلا بالخلفاء .

ومما يدل على مقدار الثروة الاسلامية النظر في مصادرات الملوك لاموالهم وقوادهم فقد صادر المنصور سنة ثمان وخمسين ومائة خالد بن برمك «واخذ منه ثلاثة آلاف الف ثم رضي عنه» . «وسنة ٢١٩ غضب المعتصم على وزيره الفضل بن مروان واخذ منه عشرة آلاف الف دينار ونفاه» . «وفي سنة سبع غضب المتوكل على احمد بن ابي دؤاد القاضي وصادره واخذ منه ستة عشر الف الف درهم» . «وفي سنة تسع عزل القاضي القضاة يحيى بن اكثم وأخذ منه مائة الف دينار» . «وكان الوزير ابن الفرات ذا جبروت وفتك وزرمرات للعباسيين ثم صودر وقتل قيل كان دخله من ملكه في السنة الفي الف دينار وكان له من الخيل والمماليك والتجمل مالا يكون مثله لسلطان» . ولما جرت المحنة على الوزير ابي علي بن مقلة صاحب الخط المشهور في زمن الراضي بالله في سنة ٣٢٤ اخذ خطه بالف الف دينار «ومات ايتاخ التركي الامير مقدم جيوش الواثق سنة اربع وثلاثين ومائتين خافه المتوكل فقبض عليه وأميت عطشاً واخذوا له الف الف دينار»

جاء في ذيل الدول وسنة ٧٥٣ قبض السلطان على الوزير علم الدين بن زنبور وصودر بعد الضرب والعذاب فكان المأخوذ منه من النقد ما يزيد على الفي الف دينار ومن اواني الذهب والفضة نحو ستين قنطاراً ومن اللؤلؤ نحو اردبين ومن الحياصات الذهب ستة آلاف ومن القماش المفصل نحو الفين وستمائة قطعة وخمسة وعشرين معصرة سكر ومائتي بستان والف واربعمائة ساقية ومن الخيل والبغال الف ومن الجواري سبعمائة ومن

العبيد مائة ومن الطواشية سبعون الى غير ذلك . وكان دخل القاسم بن عبيدالله وزير المعتضد العباسي من املاكه في السنة سبعمائة الف دينار «ومات سنة ٣٠١ امير جنديسابور علي بن احمد الراسبي وخلف تركة عظيمة منها الف الف دينار والف فرس» . وخلف احمد ابن يونس الحراني من اطباء الاندلس ما قيمته ازيد من مائة الف دينار نال اكثرها من الطب . وكان ابوعبدالله بن الكتاني من اطباء الاندلس وفلاسفتها ذا ثروة وغنى واسع وفي عيون التواريخ (١) ان عبدالله بن محمد الاسدي المعروف بابن الاكفاني قاضي قضاة بغداد المتوفى سنة ٤٠٥ انفق على ما قيل مائة الف دينار على طلب العلم . وخلف خاسر الشاعر ايام الرشيد ستة وثلاثين الف دينار وليس هذا بعجيب على من نظم يبتين في مدح محمد بن زبيدة لما بايعه الرشيد فحشت فاه درًا باعه بعشرين الف دينار

وذكر ان السلطان سنجر بن ملكشاه المتوفى سنه ٥٥٢ — صاحب خراسان وغزنة وما وراء النهر الذي خُطب له بالعراقين واذربيجان واران وارمينية والشام والموصل وديار بكر وربيعة وضُربت السكة باسمه في الخافقين — اصطبح خمسة ايام متوالية ذهب في الجود بها كل مذهب فبلغ ما وهبه من العين ستمائة الف دينار غير ما انعم به من الخيل والخلع والاثاث وغير ذلك وقال خازنه اجتمع في خزائنه من الاموال مالم اسمع انه اجتمع في خزائن احد من الملوك الاكاسرة وقلت له يومًا حصل في خزائنك الف ثوب ديباج اطلس واحب ان تبصرها فسكت وظننت انه رضي بذلك فابرزت جميعها وقلت اما تنظر الى مالك اما تحمد الله تعالى على ما اعطاك وانعم عليك فحمد الله تعالى ثم قال بقيج بثلي ان يقال مال الى المال وامر الامراء بالاذن في الدخول عليه ففرق عليهم الثياب الاطلس وانصرفوا واجتمع عنده من الجوهر الف وثلاثون رطلاً ولم يسمع عند احد من الملوك بمثل هذا ولا بما يقاربه قاله ابن خلكان .

قال صاحب الدول : خلف الملك الافضل ستمائة الف الف دينار عينًا ومائتين وخمسين اردبًا دراهم نقد مصر وخمسة وسبعين الف ثوب ديباج اطلس وثلاثين راحلة احقاق ذهب عراقي ودواة ذهب فيها جوهر قيمته اثنا عشر الف دينار ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة مجالس في كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مسرود مذهب بلون من الالوان ابا احب منها لبسه وخمسمائة صندوق كسوة خاصته من دق نيس ودمياط وخلف من الخيل والرفيق والبغال والمراكب والطيب والحلي والتجمل مالا يعلم

(١) هو للصلاح الكتبي صاحب ذيل وفيات الاعيان وجدت منه في مخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق الجزء الاول والثالث والخامس والسادس والثاني عشر والثالث عشر

قدره الا الله تعالى وخلف خارجاً عن ذلك من البقر والغنم والجواميس ما يستحي الانسان من ذكر عدده وبلغ ضمان البانها في سنة وفاته ثلاثين الف دينار ووجد في تركته صندوقان كبيران فيهما ابر ذهب برسم الجواري والنساء .

ذكر الطبري في سنة ثلاث عشرة ومائتين ان المأمون ولى اخاه المعتصم الشام ومصر وابنه العباس بن المأمون الجزيرة والثغور والعواصم واعطى كل واحد منهما ومن عبدالله بن طاهر اخمسمائة الف دينار وقيل انه لم يفرق في يوم واحد من المال مثل ذلك .

وكان ابو محمد عبدالله بن احمد الطالبي المصري صاحب رباع وضياع ونعم ظاهرة وعبيد وحاشية كثير التنعم كان بدهليزه رجل يكسر اللوز كل يوم من اول النهار الى آخره برسم الحلوى التي ينفذها لاهل مصر من الاستاذ كافور الاخشيدي الى من دونه فمن الناس من كان يرسل له الحلوى كل يوم ومنهم كل جمعة ومنهم كل شهر وكان يرسل الى كافور في كل يومين جامين حلوى ورغيفاً في منديل مختوم قاله ابن خلكان . ودفع ابو محمد عبدالله ابن عبد الحكم والد ابي عبدالله محمد صاحب الامام الشافعي لهذا الامام عند قدومه الى مصر الف دينار من ماله واخذ له من ابن عسامة التاجر الف دينار ومن رجلين آخرين الف دينار وكان ابو محمد من ذوي الاموال والرباع وله جاه عظيم وقدر كبير

هذه امثلة مما عثرنا عليه تصوّر للقاريء حالة الثروة عند العرب بعض التصوير والله اعلم بالصواب

اليونان

سبب نصرة اليونان — لم تكن حرب مادي حرباً وطنية بين يونان وبرابرة بل كان يونان آسيا ونصف يونان اوروبا يقاتلون في الجيش الفارسي ولم يجسر كثيرون من ابناء جنسهم على ابداء اقل حركة . وكان الخاقان الاعظم ورعاياهم الذين حاربوا اسبارطة واثينة ومن حالفها في الحقيقة . فكان من خوارق العادات ان يغلب هذان الشعبان الصغيران ذاك الخليط العظيم من الفرس . وزعم اليونانيون ان الآلهة قاتلوا عنهم ومتى درست احوال الخصمين عن أمم ببطل عجبك . فقد كان الجيش الفارسي جيشاً فظن كسيركس على سذاجة قلبه ان النصر معقد اللواء بكثرة العدد بيد ان هذه الجموع كانت مرتبكة من نفسها ولم تدر من اين تأخذ ذخيرتها وتقدم تقدماً بطيئاً ويضيق ذرعها من اول يوم الحرب حتى ان السفن المزدحمة كانت تغرز طرف مقدمها في السفن المحيطة بها